

الاتجاه السياسي في تفسير المنار

(عرض وتحليل لمجموعة من القضايا السياسية)

(مجلة كلية الالهيّات جامعة اسطنبول – تركيا _توجد موافقة بتاريخ 2015/4/1)

إعداد

الدكتور عودة عبد عودة عبد الله*

الأستاذ محمود خضر سلوم**

* أستاذ مشارك بقسم أصول الدين – جامعة النجاح الوطنية – فلسطين

** ماجستير أصول الدين، جامعة النجاح الوطنية (طالب دكتوراة – جامعة اسطنبول -تركيا)

الاتجاه السياسي في تفسير المنار (عرض وتحليل لمجموعة من القضايا السياسية)

إعداد

(الدكتور عودة عبد الله - الأستاذ محمود سلوم)

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة بعض القضايا السياسية في تفسير المنار، وهي: الشورى، والحكم بما أنزل الله، ووحدة الأمة، وبيان موقف الإسلام من الحضارة الغربية، والحكومة الإسلامية، والتي يظهر من خلال دراستها معالم الاتجاه السياسي في تفسير المنار، وهذا يبرز فكرة الإصلاح السياسي كجزء من فكرة الإصلاح العام والشامل التي نادت بها مدرسة المنار في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية.

Abstract

Political direction in Al-Manar interpretation

(Discussion and analysis for a group of political issues)

This research aims to study some of the political issues in Al-Manar interpretation such as: Shura, ruling by what Allah has revealed, unity of the nation, the perspective of Islam toward Western civilization, and the Islamic government; studying these issues will show the political direction in Al-Manar interpretation, and this highlights the idea of political reform as part of the general and comprehensive reform advocated by Al-Manar School in all aspects of social, political, economic and religious life

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه، واقتفى أثره، إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

فقد هياً الله عز وجل لعلم التفسير رجاله الذين نفوا عنه انتحال المبطلين، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، فتحمل هؤلاء العلماء عظم الأمانة التي وُكِّلوا بها، فوهبوا أوقاتهم وأعمارهم، ليعدموا كتاب الله، ويذبوا عنه ما استطاعوا. فكان من هؤلاء صاحب تفسير المنار الذي حرص على رسم أهداف الأمة وتحقيق آمالها، من خلال فكرة الإصلاح الشامل التي طبق أصولها في التفسير القرآني، عن طريق الدعوة إلى تجديد مناهج التفسير القرآني، والدعوة إلى تنقية التفسير من شوائب البدع والإسرائيليات والاستطرادات النحوية والبلاغية والفلسفية، وكان لهذا المنهج التجديدي نتائج إيجابية على الأمة الإسلامية على مستوى البحوث والدراسات القرآنية فقد أغنت التفسير باتجاهات ومباحث جديدة.

ويأتي هذا البحث كمحاولة للكشف عن معالم الاتجاه السياسي في تفسير المنار، من خلال بيان رأي صاحب المنار في مجموعة من القضايا السياسية المطروحة في تفسير المنار، وهي: الحكم بما أنزل الله، والشورى، ووحدة الأمة، وبيان موقف الإسلام من الحضارة الغربية، والحكومة الإسلامية.

وقد اشتمل هذا البحث إضافة إلى المقدمة والخاتمة على فصلين:

الفصل الأول : الفكر السياسي في تفسير المنار

المبحث الأول : تفسير المنار ومنهجه العام

المبحث الثاني: الاهتمام بالاصلاح السياسي في تفسير المنار

الفصل الثاني: قضايا سياسية في تفسير المنار (عرض وتحليل)

المبحث الأول : الحكم بما أنزل الله

المبحث الثاني : الشورى

المبحث الثالث : وحدة الأمة الإسلامية

المبحث الرابع : بيان موقف الإسلام من الحضارة الغربية

المبحث الخامس: الحكومة الإسلامية

والله تعالى نسأل أن يكون هذا البحث في ميزان حسناتنا يوم نلقاه, وأن يكون فيه الفائدة المرجوة.

الفصل الأول

الفكر السياسي في تفسير المنار

المبحث الأول : تفسير المنار ومنهجه العام

يقوم تفسير المنار في حقيقة أمره على ثلاثة رجال، أولهم السيد جمال الدين الأفغاني الذي انقدحت عن فكره نظرية إصلاح المجتمع الاسلامي برجوع المسلمين إلى منبع الدين وتلقيه من هنالك صافياً مبرأ مما اتصل به من الشوائب. والرجل الثاني هو الشيخ محمد عبدة الذي باشر فعلاً تفسير القرآن على طريقة تطبيق النظرية التي دعا إليها السيد جمال الدين الأفغاني، وكان ذلك في الدروس التي ألقاها الشيخ محمد عبدة في بيروت والقاهرة. والرجل الثالث هو الشيخ محمد رشيد رضا، الذي تولى تقييد ما أملاه الشيخ محمد عبدة وتلخيصه ونشره تبعاً في مجلة (المنار) التي اشتهر التفسير باسمها¹.

يقول ابن عاشور: "فإذاً كان هناك من بين الثلاثة: جمال الدين الأفغاني، وعبدة، ورشيد رضا من هو أحق بأن ينسب إليه تأليف هذا التفسير من الآخرين، فلن يكون ذلك غير المؤلف الحقيقي له فعلياً: وهو العلامة محمد رشيد رضا، على أن الميزة الحقيقية لذلك التفسير في منهجه البديع، وفيما اشتمل عليه من أمور اشتهر بها ورجع بسببها إليه، إنما تثبت خاصة للملقي تلك الدروس وهو الشيخ محمد عبدة"².

يحمل هذا التفسير اسم (تفسير القرآن الحكيم)، لكنه اشتهر عند الباحثين والدارسين باسم (تفسير المنار)، لكون أجزائه نشرت بالتتابع في مجلة (المنار).

عندما التقى الشيخ رشيد رضا بشيخه الإمام محمد عبدة، وأقنعه بعد جهد جهيد بتفسير كتاب الله عز وجل في دروس بالجامع الأزهر، كانت هذه البداية الخطوة الأولى على طريق تفسير المنار، وكان الشيخ محمد عبدة يفسر، وتلميذه الشيخ رشيد رضا يدون، وظل الشيخ يفسر حتى بلغ قوله تعالى: ((وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا))

¹ ابن عاشور، محمد بن الفاضل: التفسير ورجاله، (مصر، مجمع البحوث الاسلامية، ط2 - 1390هـ - 1970م)، ص167.

² - المرجع السابق، ص168.

[النساء: 126]، من سورة النساء، ليدرك أنه على موعد مع القدر، فيتوفاه ربه عز وجل في سنة 1905م، ويلقي أمانته على عنق تلميذه النجيب، وترجمان أفكاره، يكمل مسعاه الذي بدأه³.

تلقى الشيخ رشيد رضا هذا القضاء بكل صدر رحب، وقلب مؤمن، واستلّ قلمه وأكمل مسيرة العطاء في تفسير القرآن الكريم، فواصل تفسيره لكلام ربه بنفس المنهج، ونفس العطاء، حتى أدركته رحمة ربه جل في علاه عام 1935م، وكان قد وصل إلى أواخر سورة يوسف، الآية: ((تَوَفَّيْ مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)) [يوسف: 101]، ففاضت روحه وآخر ملاذها برحما، كما لاذ يوسف الصديق عليه السلام بربه: أن يتوفاه مسلماً، وأن يحشره في زمرة الصالحين. يقول الدكتور صلاح الخالدي: "وكان الإمام محمد رشيد رضا يدعوا الله بهذا الدعاء الذي دعا به يوسف عليه السلام، ويخبر فيه عن فضل الله عليه، بأنه علمه من تأويل الأحاديث وتفسير القرآن، فقد فسر حوالي نصف القرآن، وهو يطلب من الله أن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين، وكان تقدير الله الحكيم أن يتوقف قلم الإمام عند هذا الموضوع، ولعل هذا دليل استجابة الله، حيث توفاه مسلماً وألحقه بالصالحين"⁴.

واصل إكمال تفسير سورة يوسف من بعد الشيخ رضا، تلميذه الأستاذ بهجت البيطار، ولم يفسر فيه أكثر من ذلك، لينتهي بذلك تفسير المنار حتى تنمة سورة يوسف⁵. وقسم الدكتور صلاح الخالدي تفسير المنار إلى ثلاثة أقسام⁶:

الأول: التفسير للشيخ محمد عبدة نصاً وروحاً؛ وهو الجزء الذي أطلع الشيخ محمد رشيد رضا شيخه عليه، فأجازه ووافق عليه، وهو الجزء الأول من تفسير المنار، وهو الذي عبر عنه الشيخ رشيد رضا في مقدمة التفسير بقوله: "وكننت أولاً أطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك، بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات"⁷.

³ - انظر، رضا، محمد رشيد: تاريخ الأستاذ الإمام، (القاهرة، دار الفضيلة، ط2 - 1427هـ - 2006م)، 786/1.

⁴ - الخالدي، صلاح: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، (دمشق، دار القلم، ط3، 1429هـ - 2008م)، ص572.

⁵ - انظر: الرومي، فهد بن عبد الرحمن: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، (السعودية، مؤسسة الرسالة، ط3 - 1418هـ - 1997م)، ص804.

⁶ - انظر: الخالدي: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، ص578، فقد كان له السبق في إبراز هذا التقسيم، وقد أخذناه منه، وحاولت الاستشهاد بأقوال الأستاذ محمد رشيد رضا أو غيره من الكتاب على هذه التقسيمات، بتصرف.

⁷ - رضا، محمد رشيد: تفسير القرآن الحكيم، المعروف بـ "تفسير المنار"، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م)، 15-14/1.

الثاني: التفسير لمحمد رشيد رضا نصاً، ولمحمد عبده روحاً: وهذا القسم في الأجزاء الأربعة التالية لما سبق ذكره من تفسير المنار، فقد كان الشيخ محمد عبده قد مات، لكنه كان قد أتم من شرحها في دروسه في الجامع الأزهر، وما كان دور الشيخ رشيد رضا إلا الترتيب والتهديب والنشر. يقول ابن عاشور: "ومنذ أن توفي الأستاذ الإمام، واستمرت مجلة المنار تنشر دروس التفسير التي كان ألقاها في حياته، أصبح التحرير واضحاً في التفرقة بين ما هو منقول عنه، وبين ما هو من بيان الكاتب"⁸.

الثالث: التفسير لمحمد رشيد رضا نصاً وروحاً وفكراً ومنهجاً: وهذا في الأجزاء السبعة الأخيرة من تفسير المنار، فقد كانت شخصية الشيخ رشيد رضا أكثر وضوحاً، وهذا الذي عناه في مقدمة المنار بقوله: "هذا وإنني لما استقلت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها"⁹. يقول ابن عاشور: "ثم لما انتهى النشر إلى حيث أدركت الوفاة الأستاذ الإمام، استقل الشيخ رشيد رضا بأعباء التفسير وحده"¹⁰.

وأما المنهج العام لتفسير المنار فتمثل في: الاهتمام بقضايا الأمة، وإصلاح حالهم انطلاقاً من القرآن الكريم، والتركيز على روح النص، وحكمة التشريع، وبيان سنن الله في خلقه، والدفاع عن القرآن، والرد على الشبهات، وعدم الخوض في الإسرائيليات والمبهمات¹¹. جاء في معجم تفاسير القرآن الكريم في التعريف بتفسير المنار: "واستمد هذا التفسير اتجاهه الخاص من اتجاه مدرسة صاحبيه في تصحيح المفاهيم، وإصلاح ما أفسدته الأقلام والأفكار، وما تسرب إلى بعض التفاسير من أوهام تنافي الدلالة القرآنية، والروح الدينية، وتحجب قارئها عن الهدى الذي اهتدى به السلف الصالح"¹².

⁸ - ابن عاشور : التفسير ورجاله ، ص174 .

⁹ - رضا : تفسير المنار ، 16/1 .

¹⁰ - ابن عاشور : التفسير ورجاله ، ص174 .

¹¹ انظر: الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون، (بيروت: دار الكتب العلمية الحديثة، ط2، 1396هـ - 1976م)، 577/2

¹² - زمامة، عبد القادر، وآخرون : معجم تفاسير القرآن الكريم ، (منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مطبعة آيديال،

1417هـ - 1997م)، ص336

يصف الشيخ صبحي الصالح تفسير المنار بأنه "نمط خاص في تأويل كلام الله، يرجع به مؤلفه غالباً إلى آثار السلف محاولاً التوفيق بينها وبين مقتضيات العصر الحاضر، ويخالفه النجاح في أكثر هذه المحاولات، إلا أنه أحياناً يستمسك ببعض الآراء الضعيفة ويدافع عنها بقوة وعناد، والمنهج الذي يصدر عنه يدل بوجه عام على تعمقه للأسلوب القرآني، ودراسته له على أنه للهداية والإعجاز"¹³

وقد عبّر الشيخ رشيد رضا في مقدمة المنار عن هذا المنهج بكلمات مختصرة؛ فقال: "تفسير القرآن الحكيم: تفسير سلفي، أثري، مدني، عصري، إرشادي، اجتماعي، سياسي"¹⁴.

وإذا ما أراد الباحث أن يبحث في تصنيف العلماء لتفسير المنار، وفي أي الأبواب والاتجاهات أحقوه، فسيري أن العلماء جعلوا له مدرسة مستقلة، كان تفسير المنار القمة فيها والمهرم، ومن ثم أحقوا عدداً من التفاسير المعاصرة بمنهج، تحت ما أسموه: المدرسة العقلية الحديثة، أو المدرسة الإصلاحية، أو المدرسة الاجتماعية، تعددت الأسماء والمراد واحد. وأياً كان الأمر فقد شكّلت مدرسة المنار فتحاً جديداً في التفسير القرآني، وصارت "مداد روح النهضة الإسلامية الحديثة، وقوام التفكير الاسلامي المجدد"¹⁵.

المبحث الثاني: الاهتمام بالإصلاح السياسي في تفسير المنار

انطلقت مدرسة المنار من قاعدة الإصلاح الشامل للمجتمع، وتغيير الواقع بالقرآن، من منطلق أن القرآن الكريم جاء لإصلاح جميع نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية. يقول صاحب المنار: "إن الكتاب الإلهي يجب أخذه بقوة وإرادة وجد وعزيمة؛ لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح، وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً، ويتأكد ذلك في الرسول المبلغ له، والداعي إليه والمنفذ له بقوله وعمله، ليكون لقومه فيه أسوة حسنة، وتلك سنة الله تعالى في سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية"¹⁶.

¹³ الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 2000م)، ص

¹⁴ - رضا: تفسير المنار: 11/1 .

¹⁵ ابن عاشور: التفسير ورجاله، ص175

¹⁶ رضا: تفسير المنار: 167/9.

لقد أشار الشيخ رشيد رضا إلى توجهه المباشر في الإصلاح السياسي، عند حديثه عن تأثير مجلة العروة الوثقى في هذا التوجه قائلاً: "وأكبر أثرها أنها هي التي وجهت نفسي في الإصلاح الإسلامي العام"¹⁷، وفي هذا الإطار ينبه رشيد رضا إلى ضرورة العمل على تجديد السياسة الشرعية، في وقت ضاعت فيه الخلافة، وتفاقم الوضع السياسي، فتمزقت وحدة المسلمين، وتشتت كلمتهم، حيث أصبح الحكم دكتاتورياً ظالماً، وفي ظل هذه الظروف أراد أن يكون مصلحاً سياسياً.

فالساسة إذاً لم تكن بمنأى عن الدعوة إلى الإصلاح، بل إن الدعوة للإصلاح السياسي قد تميزت بالشمولية، لأن نظرة الشيخ رشيد رضا للسياسة شاملة عامة، لا تميز بين الراعي والرعية، تتفاعل مع الأزمات بدقة وموضوعية، وتفتح الحلول، وهي دعوة تحررية، تنبذ الظلم والدكتاتورية، وهي الدعوة التي يعود لها الفضل في انتشار الصحو الإسلامية كما نراها اليوم في مختلف أرجاء العالم الإسلامي¹⁸.

ويعبر الشيخ رشيد رضا عن نهجه السياسي الإصلاحية بقوله: "حقاً إنني على ضعفي وعجز حريص على الإصلاح الإسلامي على إطلاقه وعمومه، لا أخص به أهل مذهب دون غيره، وإنني لست سنياً بمعنى التعصب أو التقليد لمذهب من المذاهب... بل أنا سنيّ بمعنى أنني مستمسك بما صح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لا أؤثر عليه تقليد أحد"¹⁹.

أما أهم عناصر هذه الدعوة الإصلاحية فهي:²⁰

- تحرير العقل الإسلامي من الخرافات وتنويره بالفكر العلمي
- محاربة مظاهر الشرك والبدع
- محاربة التقليد والجمود، وتفعيل الاجتهاد
- مقاومة الظلم والاستبداد السياسي
- الدعوة إلى إشاعة العلم والمعارف الحديثة داخل الأمة الإسلامية.
- الاحتراز من خروج الإصلاح السياسي عن أصول التشريع وأحكامه ومقاصده

¹⁷ رضا، محمد رشيد: مجلة المنار، 17 أغسطس 1905م، 16 جمادى الآخرة 1323هـ، 8440.

¹⁸ انظر: مبارك، أحمد: مقال على موقع الفكر المعاصر، بعنوان "الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الإسلامي"

¹⁹ رضا، محمد رشيد: مجلة المنار، مجلد 23/763.

²⁰ انظر: خرويات، محمد: بحث في ندوة بعنوان "الشيخ محمد رضا: دوره الفكري ومنهجه الإصلاحية"، الأردن (عمان) - 15 ربيع الثاني 1420هـ/28 تموز (يوليو) 1999م.

- الانضباط بحاكمية التشريع الإسلامي

أما معوقات الاصلاح السياسي عند صاحب المنار، فيرى الدكتور مصطفى نجود أنها خمسة وهي²¹:

- العصبية الدينية والسياسية
- عقبة الجهل والأمية
- الاستبداد السياسي
- التقليد في وجهته باتجاه الماضي أو الحاضر
- تمزق جسد الأمة

فمثلاً نجد صاحب المنار يحدثنا في تفسيره عن خطر الاستبداد السياسي على الأمة، وما يؤدي إليه الاستبداد من انتشار الظلم وضياع الحقوق، فيقول: "وأما الحاكم المستبد الظالم فهو الذي تروج عنده الشفاعات؛ لأنه يجابي أعوانه المقربين منه ليكونوا شركاء له في استبداده، فيثق بثباتهم على خدمته وإخلاصهم له، وما الذئاب الضارية بأفتك من الغنم من فتك الشفاعات في إفساد الحكومات والدول، فإن الحكومة التي تروج فيها الشفاعات يعتمد التابعون لها على الشفاعة في كل ما يطلبون منها لا على الحق والعدل، فتضيع فيها الحقوق، ويحل الظلم محل العدل، ويسري ذلك من الدولة إلى الأمة فيكون الفساد عاماً. وقد نشأنا في بلاد هذه حال أهلها وحال حكومتهم، يعتقد الجماهير أنه لا سبيل إلى قضاء مصلحة في الحكومة إلا بالشفاعة أو الرشوة، ولا يقوم عندنا دليل على صلاح حكومتنا إلا إذا زال هذا الاعتقاد، وصارت الشفاعة من الوسائل التي لا يلجأ إليها إلا أصحاب الحق بعد طلبه من أسبابه... وظهور الحاجة إلى شفيع يظهر للحاكم العادل ما لم يكن يعلمه من استحقاق المشفوع له لكذا، أو وقوع الظلم عليه في كذا، وأن يكون ما عدا هذا من النوادر التي لا تخلو حكومة منها، مهما ارتقت وصلح حالها"²².

²¹ نجود، مصطفى: ندوة بعنوان "الشيخ محمد رضا: دوره الفكري ومنهجه الاصلاحية"، الأردن (عمان) - 15 ربيع الثاني 1420هـ/28 تموز (يوليو) 1999م.

²² رضا: تفسير المنار: 251/5.

الأمة كفر معصية لا يخرجهم عن الإيمان. وقيل لحذيفة بن اليمان: أنزلت هذه الآية في بني إسرائيل؟ فقال: نعم ... وقال الشعبي: نزلت (الكافرون) في المسلمين و(الظالمون) في اليهود و(الفاسقون) في النصارى. قال القاضي أبو محمد: ولا أعلم بهذا التخصيص وجهاً إلا إن صح فيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه راعى من ذكر مع كل خبر من هذه الثلاثة فلا يترتب له ما ذكر في المسلمين إلا على أنهم خوطبوا بقوله: (فلا تخشوا الناس). وقال إبراهيم النخعي: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ثم رضي لهذه الأمة بها²⁷.

أما صاحب المنار فأراه على النحو الآتي:

أول آية الكفر على استحلال ترك التحكيم استباحة له، وتقديم الحكم نفسه وهواه على حكم ربه، فقال: "وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله من أحكام الحق والعدل، فلم يحكم بما لمخالفتها لهواه أو لمنفعته الدنيوية، فأولئك هم الكافرون بهذه الآيات؛ لأن الإيمان الصحيح يستلزم الإذعان، والإذعان يستلزم العمل وينافي الاستباح والترك"²⁸.

وأما (الظالمون) فمن ترك العمل بحكم ربه وهو غير منكر له، فهو بذلك ظالم؛ لعدم توفير العدل الذي لا يكون إلا بشرع رب الأرض والسموات، فحيثما وجد شرع الله وجد العدل، فقال: "وكل من كان بصدد الحكم في شيء من هذه الجنايات فأعرض عما أنزل الله من القصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس، وحكم بهواه أو بحكم غير حكم الله - فضّله عليه - فهو من الظالمين حتماً؛ إذ الخروج عن القصاص لا يكون إلا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر، وهضم حق المفضل عليه وظلمه"²⁹.

وأما (الفاسقون) فقوم تجاوزوا الحد في ظلمهم لأنفسهم، فكأنما بدأوا خروجهم من دين ربهم، لأن الفسق بداية الخروج، فقال: "فأولئك هم الخارجون من حظيرة الدين، الذين لا يعدون منه في شيء، أو الخارجون من الطاعة له، المتجاوزون لأحكامه وآدابه"³⁰.

²⁷ ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ - 1993م، 228/2.

²⁸ رضا: تفسير المنار، 330/6.

²⁹ - رضا: تفسير المنار، 331/6.

³⁰ - المصدر السابق، 332/6.

ثم علل رأيه الذي استخلصه من آيات التحكيم بقوله: "وإذا تأملت الآيات أدنى تأمل، تظهر لك نكتة التعبير بوصف الكفر في الأولى، وبوصف الظلم في الثانية، وبوصف الفسوق في الثالثة، فالألفاظ وردت بمعانيها في أصل اللغة موافقة لاصطلاح العلماء. ففي الآية الأولى كان الكلام في التشريع وإنزال الكتاب مشتملاً على الهدى والنور والتزام الأنبياء وحكماء العلماء العمل والحكم به، والوصية بحفظه. وختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له، رغبة عن هدايته ونوره، مؤثراً لغيره عليه، فهو الكافر به، وهذا واضح، لا يدخل فيه من لم يتفق له الحكم به، أو من ترك الحكم به عن جهالة ثم تاب إلى الله، وهذا هو العاصي بترك الحكم، الذي يتحامي أهل السنة القول بتكفيره، والسياق يدل على ما ذكرنا من التعليل. وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن الإيمان وترجمان الدين، بل في عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء بالعدل والمساواة، فمن لم يحكم بذلك فهو الظالم في حكمه، كما هو ظاهر. وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الإنجيل، وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في إقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته، لا بحسب ظواهر الألفاظ فقط، فمن لم يحكم بهذه الهداية، ممن خوطبوا بها، فهم الفاسقون بالمعصية والخروج من محيط تأديب الشريعة"³¹.

ثم أسقط رحمه الله دلالة هذه الآيات على مسلمي هذا العصر، وبين موقعهم من تلك الأوصاف، فقال: "وقد استحدث كثير من المسلمين من الشرائع والأحكام نحو ما استحدث الذين من قبلهم، وتركوا بالحكم بها بعض ما أنزل الله عليهم، فالذين يتركون ما أنزل الله في كتابه من الأحكام، من غير تأويل يعتقدون صحته، فإنه يصدق عليهم ما قاله الله تعالى في الآيات الثلاث، أو في بعضها، كل بحسب حاله، فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا غير مدعن له؛ لاستقباحه إياه، وتفضيل غيره من أوضاع البشر عليه، فهو كافر قطعاً، ومن لم يحكم به لعلة أخرى فهو ظالم، إن كان في ذلك إضاعة الحق، أو ترك العدل والمساواة فيه، وإلا فهو فاسق فقط؛ إذ لفظ الفسق أعم هذه الألفاظ، فكل كافر وكل ظالم فاسق، ولا عكس، وحكم الله العام - المطلق الشامل لما ورد فيه النص ولغيره مما يعلم بالاجتهاد والاستدلال هو العدل، فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله كما قال أحد الأعلام"³².

³¹ - المصدر السابق، 6/334-335.

³² - رضا: تفسير المنار، 6/335.

العمل برأي الرئيس وإن كان صواباً، لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم (المشاوره) فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر، والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر. قال الأستاذ الإمام: ليس من السهل أن يشاور الإنسان ولا أن يشير، وإذا كان المستشارون كثاراً أكثر النزاع وتشعب الرأي، ولهذا الصعوبة والوعورة أمر الله تعالى نبيه أن يقرر سنة المشاورة في هذه الأمة بالعمل، فكان صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه بغاية اللطف ويصغي إلى كل قول ويرجع عن رأيه إلى رأيهم، وليس عندي عن الأستاذ في هذه المسألة غير هذا³⁶.

فالرسول عليه السلام . كما يرى صاحب المنار . كان دائم التركيز على إقرار منهج الشورى بين المسلمين، وغرس بذورها فيما بينهم، وعلى ضرورة الالتزام بقرار المشورة حتى لو كانت النتيجة ما كان يوم أحد، لأن النتيجة لم تكن النبي صلى الله عليه وسلم من معاودته للشورى، ولم تمنعه من خوض غمارها من جديد، لأن غيابها يعني الاستبداد والتسلط في الرأي والفعل، فإن الله لم يجعل سياسة الأمة وتديير شؤونها في يدي شخص واحد يتصرف فيها كيف شاء، بل فرض على العامة أن تستخلص منها قوماً عارفين، يدبرون للأمة، ويصونونها عن الانحراف والضلال³⁷.

فالشورى تبعد النتيجة قدر الإمكان عن الخطأ والزلل، لأن الجماعة لا يتصور فيهم أن يجتمعوا على ضلال، مادام اختيار المشاورين ابتداءً نابع من الحكمة، واختيار الرجل المناسب القادر على إعطاء الرأي الحكيم. وخصّ صاحب المنار الشورى بالأمر الديني لا الدينية، إذ لا مجال للرأي فيها أصالة ما لم تكن صادرة عن اجتهاد، إذ الاجتهاد صورة مصغرة للشورى، مخصوصة بأهل الحل والعقد فقال: "فالمراد بالأمر أمر الأمة الديني الذي يقوم به الحكام عادة ; لا أمر الدين المحض الذي مداره على الوحي دون الرأي، إذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاوره لكان الدين من وضع البشر، وإنما هو وضع إلهي ليس لأحد فيه رأي لا في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا بعده³⁸".

³⁶ - رضا : تفسير المنار ، 164-163/4 .

³⁷ - بدوي، عبد الرحمن محمد: الامام محمد عبده والقضايا الإسلامية، (مصر: رمسيس، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ص204-205 .

³⁸ - رضا : تفسير المنار ، 164/4 .

وأدخل صاحب المنار حكم الشورى في دائرة الوجوب، فقال: "وإذا علمنا أن مناصحة الأمراء أمر واجب على الرعية، كما تدل عليه الأحاديث والآيات القرآنية الشريفة، وجب على ولاة الأمر أن لا يمنعوهم من قضاء هذا الواجب، فدل ذلك على أن الأمر في قوله تعالى: (وشاورهم في الأمر) للوجوب لا للندب"³⁹.

ولدقة فهم صاحب المنار؛ فإنه جعل الوسيلة المتبعة في الشورى مناصرة بالزمن، تتغير بتغيره، ويتنقى أفراد المجتمع منها ما يستوي مع فكرهم وظروف معيشتهم، وبكيفية نعم أرجاء دنياهم الواسعة النطاق، فقال: "أَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الرُّكْنَ (الشُّورَى) فِي زَمَانِهِ بِحَسَبِ مُقْتَضَى الْحَالِ مِنْ حَيْثُ قَلَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاجْتِمَاعِهِمْ مَعَهُ"⁴⁰. وقال رحمه الله تعالى: "ومعلوم أن الشرع لم يجيء ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام، ولا طريقة معروفة للشورى عليهم، كما لم يمنع كيفية من كفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها، فالشورى واجب شرعي، وكيفية إجرائها غير محصور في طريق معين، فاختيار الطريق المعين باق على الأصل من الإباحة والجواز، كما هو القاعدة في كل ما لم يرد نص بنفيه أو إثباته"⁴¹.

فما دام أن الشرع لم ينصص على كيفية معلومة، أو طريقة مخصوصة، فالحكم فيها للبشر، وعلل رحمه الله ذلك بجملة من الأسباب:⁴²

أولاً: أن هذا الأمر يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية في المكان والزمان، فكان عليه الصلاة والسلام بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، يعلم أن هذا الدين سينتشر، وسيوسع حتى يملأ مشارق الأرض ومغاربها، وأن الله سيفتح لأمته الممالك، ويخضع لها الأمم، فكل هذا كان مانعاً له من بيان شكلٍ للشورى، يصلح للأمة زمناً، ولا يكون كذلك أزماناً.

ثانياً: أن النبي صلى الله عليه وسلم لو وضع قواعد مؤقتة للشورى بحسب حاجة ذلك الزمن لاتخاذها المسلمون ديناً وحاولوا العمل بها في كل زمان ومكان، ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يتوقفوا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم حتى ينظروا أوحى هو أم رأي قابل للاجتهاد، فيعملوا فيه رأيهم، ويبينوا فيه وجهتهم.

³⁹ - بدوي : الامام محمد عبده والقضايا الاسلامية ، ص 206 .

⁴⁰ - رضا : تفسير المنار ، 4/ 164 .

⁴¹ - بدوي : الامام محمد عبده والقضايا الاسلامية ، ص 207 .

⁴² - انظر ، رضا : تفسير المنار ، 4/ 164-165 ، بتصرف .

﴿١٧٤﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٢﴾ ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٠﴾ ﴿١٥٩﴾ ﴿١٥٨﴾ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٦﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿١٤٤﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٦﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٤﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿١١٣﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿١١١﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾ ﴿١٠٣﴾ [آل عمران: 103] يشير إلى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الإيمان التي بها قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم، وبها كان يؤثر بعضهم بعضاً بالشيء على نفسه وهو في خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشيء، بعد ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ما هو معروف في جملته للجماهير⁴⁷.

ولم ينكر رحمه الله . مع شدة دعوته إلى الوحدة . سنة الله في التدافع والاختلاف، بل ردّ على من يقلل من شأن هذه السنة في التأثير على الأرض، وفي الوقوف عائقاً أمام وحدة الصف الإسلامي، فقال: "دفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون: إن الحرب طبيعة في البشر لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى أن قوله تعالى: ﴿١٧٤﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٢﴾ ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٠﴾ ﴿١٥٩﴾ ﴿١٥٨﴾ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٦﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿١٤٤﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٦﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٤﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿١١٣﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿١١١﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾ ﴿١٠٣﴾ ((البقرة: 251)، ليس نصاً فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة⁴⁸، لكنه مع ذلك جعل هذا الاختلاف هو اختلاف تنوع لا تضاد، فقسم الاختلاف إلى نوعين؛ فقال: "التفرق والاختلاف قسمان: قسم لا يمكن أن يسلم منه البشر، فالنهي عنه من قبيل تكليف ما لا يستطاع، وليس بمراد في الآيات، وقسم يمكن الاحتراس منه وهو المراد بها. أما الأول: فهو الخلاف في الفهم والرأي، ولا مفر منه لأنه مما فطر عليه البشر، كما قال تعالى: ﴿١٧٤﴾ ﴿١٧٣﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿١٦٣﴾ ﴿١٦٢﴾ ﴿١٦١﴾ ﴿١٦٠﴾ ﴿١٥٩﴾ ﴿١٥٨﴾ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٦﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿١٥٤﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴿١٥٢﴾ ﴿١٥١﴾ ﴿١٥٠﴾ ﴿١٤٩﴾ ﴿١٤٨﴾ ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٦﴾ ﴿١٤٥﴾ ﴿١٤٤﴾ ﴿١٤٣﴾ ﴿١٤٢﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٦﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿١٣٤﴾ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿١٢٩﴾ ﴿١٢٨﴾ ﴿١٢٧﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿١٢٥﴾ ﴿١٢٤﴾ ﴿١٢٣﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿١١٦﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿١١٤﴾ ﴿١١٣﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿١١١﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿٧١﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿٦١﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿٥١﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿٣١﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿١٩﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٧﴾ ﴿١٦﴾ ﴿١٥﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ ﴿٩﴾ ﴿٨﴾ ﴿٧﴾ ﴿٦﴾ ﴿٥﴾ ﴿٤﴾ ﴿٣﴾ ﴿٢﴾ ﴿١﴾ ﴿٠﴾ ﴿١٠٣﴾ ((هود: 118) ، فاستواء الناس في العقول والأفهام مما لا سبيل إليه ولا مطمع فيه، إذ هو من قبيل الحب والبغض، فالإخوة الأشقاء في البيت الواحد تختلف أفهامهم في الشيء كما يختلف حبهم له وميلهم إليه. وأما الثاني: -وهو ما جاءت الأديان لمحوه- فهو تحكيم الأهواء في الدين والأحكام، وهو أشد الأشياء ضرراً في البشر؛ لأنه يطمس أعلام الهداية التي يلجأ إليها في إزالة المضار التي في النوع الأول من الخلاف. أما كون القسم الأول غير ضار فهو ما يعرفه كل أحد من نفسه⁴⁹.

47 - رضا : تفسير المنار ، 4/18-19 .

48 - عبد الرحيم : الامام محمد عبده ومنهجه في التفسير ، ص306 .

49 - رضا : تفسير المنار ، 4/19-20 .

فصاحب المنار يبين لنا ضرورة وحدة الصف، متسلسلا بذلك ومراعيًا سنة التدرج، منها على العثرات التي يمكن لها أن تحدث، ومع هذا كله؛ يدعو إلى عدم التمسك بالخلافات اليسيرة التي قد يجد فيها البعض شناعة يعلق عليها أسباب الفرقة.

المبحث الرابع : بيان موقف الاسلام من الحضارة الغربية

حرصت مدرسة المنار، على إصلاح المجتمع، وتغيير ما فيه من عادات سلبية، واستنهاضه نحو السمو والرقى، فكان من نتيجة ذلك أن نظروا إلى بعض جوانب الحضارة الغربية نظرة إيجابية، فطالبوا بالاستعانة بها لمعالجة حالة الركود عند الأمة الإسلامية، لكن لا على سبيل استبدالها بالحضارة الإسلامية، وذلك لأنّ الله عزّ وجل ترك أمر تنظيم الكثير من شؤون الحياة منوطاً بالبشر، يختارون ما يحقق لهم العدالة والحرية والراحة. يقول المحتسب: "وأتاح لحركة محمد عبده التوفيقية، اعتماده على فكرة أن ما لا يخالف الإسلام، ولم يرد نص على النهي عنه، يجوز أخذه"⁵⁰. وفتحت عيني الشيخ محمد عبدة على هذه الدعوى أثناء وجوده في بيروت، حيث يقول وهو يتكلم عن الحركة الإصلاحية فيها: "وأذكى لهيب تلك الحركة، حرص المسلمين على مجارة المسيحيين في نهضتهم التعليمية"⁵¹، ولعل هذا ما دفع محمد عبدة إلى مراسلة بعض القساوسة⁵² لإيجاد نوع من النظرة التوافقية حول بعض القضايا المشتركة، حيث أدرك أنه لا بد من دراسة الحضارة الغربية، ومحاولة التوفيق بينها وبين الحضارة الإسلامية.

ولم يقف محمد عبدة عند هذا الحد؛ بل رأى جواز الانخراط في العمل السياسي معهم، والدخول في حكومتهم إن تطلب ذلك، يقول في معرض تفسيره لآيات التحكيم: "يظن بعض الناس أن العمل للكافر لا يحل بحال، والظاهر لنا أن المسلم الذي يعتقد أنه لا ينبغي أن يحكم المسلم إلا المسلم، وأن جميع الأحكام يجب أن تكون موافقة لشريعته، وقائمة على أصولها العادلة، ينبغي له أن يسعى في كل مكان بإقامة ما يستطيع إقامته من هذه الأحكام، وأن يحول دون تحكّم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الإمكان، وبهذا القصد يجوز له، أو يجب عليه

50 - المحتسب : اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، ص 166 .

51 - ابن عاشور : التفسير ورجاله ، ص 164 .

52 - عماره ، محمد : الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده ، (بيروت ، دار الشروق ، ط 1 . 1414 هـ - 1993 م) ، 363/2 .

يردّ تفسيرهم للولاية بأنها ولاية مودة وحسن معاملة، واستخدام أهل الكتاب، ويرى أن ذلك لا بأس به، وقال: "الأولياء: الأنصار، والاتخاذ يفيد معنى الاصطناع. وهو عبارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة بمصلحة الدين"⁵⁸.

وبناء على نظرتة السابقة؛ فقد أباح لأهل الهند التعامل مع الانجليز، والانخراط معهم في الحكومة، لا سيما أن الحكومة الانجليزية حكومة متساهلة قريبة من العدل، على حد تصوره. فقال: " والمعروف أن قوانين هذه الدولة أقرب إلى الشريعة الإسلامية من غيرها ; لأنها تفوض أكثر الأمور إلى اجتهاد القضاة، فمن كان أهلاً للقضاء في الإسلام وتولى القضاء في الهند بصحة قصد وحسن نية يتيسر له أن يخدم المسلمين خدمة جلييلة، وظاهر أن ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة للقضاء وغيره من أعمال الحكومة; تأثماً من العمل بقوانينها، يضيع على المسلمين معظم مصالحهم في دينهم وديناهم، وما نكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين إلا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة"⁵⁹.

ثم بين رحمه الله عز وجل أن هذه الفتوى إنما هي رخصة، لا ينبغي أن تكون أصلاً يقاس عليها، أو تتمتع بالديمومة كسائر أحكام الاسلام، بل هي بحكم الضرورة، فقال: "والظاهر مع هذا كله أن قبول المسلم للعمل في الحكومة الإنكليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناه) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين، إن لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين"⁶⁰.

وهذه الفتوى لم تعجب البعض، بل وصاروا يرشقون صاحب المنار، وشيخه محمد عبده بالتهم، والظعن في الدين والعقيدة. قال المحتسب: "وهذا قول فيه جرأة على الله...، ونحن نعتقد أن محمد عبده في مثل هذه التأويلات والفتاوى يخدم أول ما يخدم الإنجليز الكفار، في الهند ومصر، وجميع بلاد المسلمين التي يحتلونها"⁶¹.

وحاول صاحب المنار رحمه الله أن يطبق ما أجازه في الهند على مصر، إذ عانت من الاحتلال الإنجليزي كسابقتها، إلا أن ذلك كان له ردود فعل انعكست عليه بالنقمة، حتى طعن بعضهم في شخص الشيخ، وشككوا في نيته وفي انتمائه لوطنه وولائه لدينه، وادعوا عليه التعامل مع المحتل.

58 - رضا : تفسير المنار ، 229-228/2 .

59 - المصدر السابق ، 338/6 .

60 - رضا : تفسير المنار ، 338/6 .

61 - المحتسب : اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، ص 200 .

يقول ابن تيمية: "نزلت الآية الأولى في ولاية الأمور، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل. ونزلت الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلا أن يأمروا بمعصية الله فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ... وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة"⁶⁴.

واستنتج محمد رشيد رضا من الآيتين أنه "يجب على الحكام الحكم بما يقرره أولو الأمر وتنفيذه، وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين أو ثلاث:

- الأولى : جماعة المبنيين للأحكام الذين يعبر عنهم أهل هذا العصر بالهيئة التشريعية .
- والثانية : جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يطلق عليهم اسم الهيئة التنفيذية .
- والثالثة : جماعة المحكمين في التنازع ويجوز أن تكون طائفة من الجماعة الأولى .

ويجب على الأمة قبول هذه الأحكام والخضوع لها سراً وجرهاً، وهي لا تكون بذلك خاضعة خانعة لأحد من البشر، ولا خارجة من دائرة توحيد الربوبية الذي شعاره ... إن الحكم إلا لله ... فإنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله . صلى الله عليه وسلم . بإذنه ، أو حكم نفسها الذي استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت بهم واطمأنت بإخلاصهم وعدم اتقاقهم إلا على ما هو الأصح لها، فهي بذلك تكون خاضعة لوجدانها لا تشعر باستبداد أحد فيها، ولا باستذلاله واستعباده لها، بل يصدق عليها ما دامت لحكومتها على هذا الوجه بقية: أنها أعز الناس نفوساً وأرفعهم رؤوساً، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين"⁶⁵.

⁶⁴ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، بيروت، دار المعرفة، ص12.

⁶⁵ رضا: تفسير المنار، 5/152

ثم بين أن الأمم في رفاهيتها والشعوب في راحتها وانتظام معيشتها، محتاجة لا محالة "إلى الحكومة بأي نوع من أنواعها، إما جمهورية، أو ملكية مشروطة، أو ملكية مقيدة. والحكومة في أي صورها لا تقوم إلا برجال يلون ضروباً من الأعمال فمنهم حراس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الأجانب عليها ... وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدي السفهاء ممن يهتك ستر الحياء، ويميل إلى الاعتداء من فتك أو سلب أو نحوهما، ومنهم حملة الشرع، وعرفاء القانون يجلسون على منصات الأحكام لفصل الخصومات ... ومنهم أهل جباية الأموال يحصلون من الرعايا ما فرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها في ذلك، ثم يستحفظون ما يحصلون في خزائن المملكة، وهي خزائن الرعايا في الحقيقة وإن كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها، ومنهم من يتولى صرف هذه الأموال في المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة، كإنشاء المدارس، والمكاتب، وتمهيد الطرق ... وإعداد المستشفيات ... وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها إنما تؤدي كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الأمانة، فإن خزيت أمانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة سقط بناء السلطة وسلب الأمن ... وضاعت حقوق المحكومين ... وتفتحت عليهم أبواب الفقر والفاقة، وخوت خزائن الحكومة، وعميت على الدولة سبل النجاح ... ولا ريب أن قوماً يساسون بحكومة خائنة، إما أن ينقضوا بالفساد، وإما أن يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم يسومونهم خسفاً، ويستبدون فيهم عسفاً فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال"⁶⁶.

وبين محمد رشيد رضا أن الأساس المتين الذي ينبغي أن تقوم عليه الحكومة الإسلامية، هو العدل، واستشهد في ذلك برأي أستاذه القائل: "الحاكم هو عبارة عن شخص العدل الناطق بما لكل أحد منه"⁶⁷. وبين أن العدل وقف على معرفة الحاكم بالحكم الشرعي ليكون الفصل بين الناس مبنياً عليه، مع استقامة الحاكم وخلوه من الميل إلى أحد الخصمين⁶⁸.

ومن الواضح هنا مدى تركيز الشيخ رشيد رضا على العدل كمبدأ أساس تقوم عليه الحكومة الإسلامية "فقوام صلاح العالم بالإيمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد، فيجتنبها المؤمن خوفاً من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما، وبالعدل في الأحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان"⁶⁹.

⁶⁶ رضا: تفسير المنار، 145/5

⁶⁷ المرجع السابق، 160/2.

⁶⁸ المرجع السابق، 146/5.

⁶⁹ المرجع السابق، 222/11

الخاتمة

يجدر بنا في نهاية هذا البحث أن نلخص أهم النقاط التي تم التوصل إليها:

1. شكّل الجانب السياسي أهمية خاصة في مشروع الإصلاح الذي حمل لواءه أصحاب المنار. حيث مثّلت الدعوة إلى الإصلاح السياسي في تفسير المنار جزءاً من النظرة الشاملة للإصلاح التي نادى بها أصحاب المنار.
2. يرى صاحب المنار أن الدعوة إلى الإصلاح السياسي تقوم على تحرير العقل من الخرافات، ومحاربة مظاهر الشرك والبدع والتقليد والجمود، ومقاومة الظلم والاستبداد السياسي، والاحتراز من خروج الإصلاح السياسي

عن أصول التشريع وأحكامه ومقاصده. أما معوقات هذا الإصلاح فهي: العصبية الدينية والسياسية، والاستبداد السياسي، وتمزق الأمة وعدم توحيدها.

3. برز الحديث عن الشورى في تفسير المنار كأصل من أصول السياسة، واعتُبرت وجهاً من وجوه الحرية السياسية ورفض الاستبداد، وجعل صاحب المنار الوسيلة المتبعة في الشورى مناصرة بالزمن، تتغير بتغيره، وينتقي أفراد المجتمع منها ما يستوي وفكرهم وظروف معيشتهم.

4. يرى صاحب المنار أن وحدة الأمة الإسلامية من أهم ما ينقصها، وأنه لا عذر لها بهذه الفرقة وهذا الاختلاف، وكان رحمه الله على منهج شيخه محمد عبده يرى أن الوطن هو الرابط العام للوحدة، والسبب الأقرب لتحفيزها، وهو الذي يجمع كل المختلفين؛ لامتناع الخلاف والنزاع فيه، وكان يرى أن ابتداء الوحدة إنما هو ابتداء رأس، ومن ثم يتبعه بقية أعضاء الجسد، فالأمة لن تتحد إلا إذا توحد قادتها، وساروا خلف منهج واحد.

5. الموقف من الحضارة الغربية من وجهة نظر صاحب المنار، ينبغي ألا يكون الرفض لها بالمطلق، بل لابد وأن ننتقي من حضارتهم ما ينهض بحضارتنا، ويوقظ أمتنا من غفوتها، حتى لو تطلب هذا العمل الانخراط معهم في سلك العمل السياسي، على أن لا يكون لذلك حكم الديمومة، بل على سبيل المصلحة والضرورة، معللاً أن المودة المنهي عنها إنما تكون بكشف أسرار المسلمين، لا بحسن المعاملة مع أعدائهم.

قائمة المراجع

1. القرآن الكريم .
2. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (ت 235 هـ): المصنف، تحقيق: محمد عوامة، طبعة الدار السلفية الهندية القديمة.
3. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، بيروت، دار المعرفة.
4. ابن عاشور، محمد بن الفاضل: التفسير ورجاله، (مصر، مجمع البحوث الإسلامية، ط2 - 1390 هـ - 1970 م).

5. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: **الخرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، لبنان ، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ - 1993م.
6. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني: **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين، دار الفكر، بيروت.
7. الأنصاري، عبد الحميد إسماعيل: **الشورى وأثرها في الديمقراطية**، دار الفكر العربي.
8. بدوي ، عبد الرحمن محمد : **الامام محمد عبده والقضايا الاسلامية** ، (مصر ، رمسيس ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب).
9. البقاعي، إبراهيم بن عمر: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
10. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، (ت 458هـ): **السنن الصغرى**، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، كراتشي، باكستان، جامعة الدراسات الإسلامية، ط1، 1410هـ - 1989م.
11. عبد القادر عطا، (مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، 1414هـ/1994م).
السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، (بيروت: دار احياء التراث العربي).
12. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد شاکر وآخرون، (بيروت: دار احياء التراث العربي).
13. الخالدي، صلاح : **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين** ، (دمشق ، دار القلم ، ط3 ، 1429هـ - 2008م).
14. خروبوات، محمد: بحث في ندوة بعنوان "الشيخ محمد رضا: دوره الفكري ومنهجه الاصلاحية"، الأردن (عمان) - 15 ربيع الثاني 1420هـ/28 تموز (يوليو) 1999م.
15. الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون**، (بيروت: دار الكتب العلمية الحديثة، ط2، 1396هـ - 1976م).
16. رضا، محمد رشيد: **تاريخ الأستاذ الإمام**، (القاهرة: دار الفضيلة، ط2، 1427هـ - 2006م).
17. =====: **تفسير القرآن الحكيم**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م).
18. =====: **مجلة المنار**، مجلد 23. 17 أغسطس 1905م.
19. الرومي، فهد بن عبد الرحمن: **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، (السعودية، مؤسسة الرسالة، ط3 - 1418هـ - 1997م).
20. =====: **منهج المدرسة العقلية في التفسير**، (بلا دار نشر ، ط2 - 1403هـ 1983م) .

21. الزعكري، عبد الحميد: البيان في حكم الانتخابات.
22. زمامة، عبد القادر، وآخرون : معجم تفاسير القرآن الكريم ، (منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مطبعة آيديال، 1417هـ - 1997م).
23. السوري، أبو حمزة محمد بن حسن: أقوال العلماء الزكية في تحريم الانتخابات الطاغوتية، (دار الحديث السلفية).
24. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى - 1414 هـ.
25. الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين، ط24، 2000م).
26. عباس، فضل حسن: المفسرون مدارسهم ومناهجهم، الأردن، مكتبة دنديس، ط1، 2007م.
27. =====: التفسير أساسياته واتجاهاته، عمان، مكتبة دنديس، ط1، 2005م.
28. عبد الرحيم، عبد الغفار: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، (القاهرة، دار الأنصار، مطبعة الحلبي، 1400هـ/1980م).
29. العراقي (725 - 806 هـ)، ابن السبكي (727 - 771 هـ)، الزبيدي (1145 - 1205 هـ):
تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، استخراج: أبي عبد الله محمود بن محمد الحداد، الرياض، دار العاصمة للنشر، ط1، 1408 هـ - 1987 م.
30. عماره ، محمد : الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده ، (بيروت ، دار الشروق ، ط1 . 1414هـ - 1993م).
31. غباشي، سيد: القول السديد في أن دخول المجلس النيابي ينافي التوحيد.
32. مبارك، أحمد: مقال على موقع الفكر المعاصر، بعنوان "الاتجاهات الحديثة في الإصلاح السياسي الاسلامي".
33. المحتسب، عبد المجيد عبد السلام : اتجاهات التفسير في العصر الراهن ، (الأردن ، عمان ، مكتبة النهضة ، ط3 - 1402هـ - 1982م) .
34. مسلم، ابن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي).
35. نجود، مصطفى: ندوة بعنوان "الشيخ محمد رضا: دوره الفكري ومنهجه الاصلاحية"، الأردن (عمان) - 15 ربيع الثاني 1420هـ/28 تموز (يوليو) 1999م.